مقدمة

التجسس هو عملية رى ظمأ الفضول ، وإشباع حب الاستطلاع ، وهو نزعة فطرية تهدف إلى جمع المعلومات ، وكشف الأسرار مدنية كانت أو عسكرية عن طريق : البحث ، والتقصى ، والملاحظة ، والتحرى ، والاستعلام ، وسرقة الوثائق ، وتصوير المستندات والتقارير ، والاستحكامات والمشروعات والمعسكرات والأسلحة والمنشآت ، وغير ذلك من الأساليب العلنية المباحة ، والوسائل الممنوعة التى يعتبر ارتكابها : إما جريمة تنحط إلي وهدة الخيانة العظمى وتنتهي بحياة مرتكبها أحيانا إلى الإعدام ، وإما بطولة ترتفع بصاحبها إلى مراتب التكريم والتمجيد ، فالجاسوس واحد من اثنين : إما خائن ، وإما بطل .

والتجسس عمل مذموم ، سواء كان موجها ضد فرد أو جماعة أو دولة .. جريمة لا تغتفر إذا كانت الدولة المجنى عليها هى الوطن . يذكر المؤرخون أن التجسس ثانى أحقر مهنة فى العالم . وقد نهى عنه الله سبحانه فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢]

استهجنته معظم المجتمعات . واختلفت شدة ازدرائه بين مجتمع وآخر ، حسب نوع الضوابط الاجتماعية السائدة . مجتمعات تعتبره عملاً وضيعاً حقيراً ، وأخرى تؤمن بأن الجاسوسية خدمة سامية . والتجسس داخل الإطار المحلى كريه بكل المقايس ، فما يزال التاريخ القريب يذكر فضيحة «**ووتر جيت**» ، التى أنهت حكم الرئيس الأمريكى «**نيكسون**» ، لتجسسه على الحزب المعارض .

والتجسس ليس شراً مطلقاً . فهو في معظم الأحوال خدمة وطنية جليلة لا يتقنها إلا الشجعان المغامرون الأذكياء ، الذين أوتوا قدراً فذاً من الجرأة والتضحية وقوة الشكيمة . وهؤلاء يفوزون بتكريم حكوماتهم وتخليد شعوبهم ، بقدر ما يستمطرون لعنات أعدائهم .. صاح الجاسوس الأمريكي «**ناثان هيل**» قبل إعدامه بواسطة الإنجليز قائلاً : «يؤسفنى ألا أملك سوى

حياة واحدة أقدمها لبلدى» وما تزال هذه العبارة تتردد سنويا فى حفلات ذكرى إعدامه منذ خمدت نيران حرب ثورة تحرير أمريكا . ومن الطبيعى أن يختلف تماماً رأى الإنجليز فى «**ناثان هيل**» فيمطرونه باللعنات ، نظراً لكثرة عدد الجنود البريطانيين الذين أبيدوا نتيجة لعمليات الجاسوسية والمعلومات التى جمعها «**ناثان**» للجنرال «**جورج واشنطن**» . مثل هذا يقال عن الجاسوس الروسى «**ريتشارد سورج**» ، الذى كرمته روسيا بإصدار طابع بريد باسمه تخليدا لذكراه ، بعد ٢٥ سنة من إعدامه بواسطة اليابانيين .

ولأن كلمة «التجسس» ما تزال كريهة منفرة ، تلجأ منظمات الجاسوسية إلى انتحال اسم «وكالة المخابرات» ، ويفضل الجاسوس تسمية نفسه «ضابط مخابرات» فى النطاق الرسمى ، ولا يفصح عن مهنته للآخرين ، حتى لا يفقد صلاحيته واحترامه ، ولقد أثبتت الجاسوسية جدواها فى الحرب والسلم ، منذ وضع «**تحتمس الثالث**» أول نظام لها ، إلى وقتنا هذا . اعتمد عليها القادة فى إلحاق الهزائم بالأعداء بأقل خسائر فى أقصر وقت، حتى قال «**نابليون بونابارت**» إن الجاسوس الواحد يعادل ٢٠٠٠٠ مقاتل .

وما أن أقبل القرن العشرين بحروبه المتلاحقة ، إلا وازداد اهتمام الدول الكبرى بتعبئة جيوش الجواسيس وتدريبهم ونشرهم . ولقد بلغ تعداد جيش المخابرات السوفيتية فى أوج قوتها ٢٠٠٠٠٠ جاسوس ، انتشروا فى أنحاء العالم . كذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين ، واليابان ، وإسرائيل ، ومصر ، وسائر الدول . ومن الصعب وجود دولة بلا جاسوسية فى القرن العشرين ، وإن وجدت ، فإنها لابد أن تعتمد على سفاراتها فى الحصول على المعلومات التى تهمها ، ولابد ـ أيضا ـ أن يحتم عليها أمنها القومى تخصيص هيئة لمكافحة الجاسوسية ، وهذا يتطلب نوعاً آخر من أعمال التجسس .

نشطت الجاسوسية واتسع مجالها منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، فأصبحت تشمل جمع المعلومات عن الخصم والحليف والدول المحايدة ، وتهتم بالمعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصناعية والإدراية علاوة على العسكرية ، وذلك باستخدام كل وسائل الحصول على

المعلومات فى البر والبحر والجو وبالطائرات والغواصات و الأقمار الصناعية، والضفادع البشرية ، والبعثات الدبلوماسية والتجارية والثقافية والرياضية ، ورجال المظلات . وصارت للجاسوسية مدارس وأساليب ، تمارسها جيوش الجواسيس التى تؤدى دورا خطيراً حساسا فى صناعة التاريخ ، ويستحيل على أى كاتب أن يضم مغامراتهم بين دفتى مجلد واحد مهما بلغ حجمه .

ظهر ملايين الجواسيس على مر الزمان فيما يسمى «**بالفن الأسود**» ، ولكن قلة منهم هم الذين استطاعوا وحدهم ترك بصماتهم على صفحات التاريخ ، لأنهم تدخلوا بطريق مباشر فى صياغة أقدار ومصائر الأمم ، فحفروا أسماءهم فى ذاكرة الزمن بين القادة الخالدين ، أو عتاة المجرمين . لم تحتم عليهم شهرتهم أن يتميزوا بروح العظمة ومقومات النبوغ . فسماتهم تتدرج بين الجرأة والجبن ، وتتراوح بين التعقل والحماقة ، لا قاسم مشترك بينهم سوى : قوة الملاحظة ، وشدة الحذر ، والكتمان المطلق .

يتناول هذا الكتاب تاريخ الجاسوسية عبر العصور ، وألمع الجواسيس وأشهر الخونة ، وتطور وسائل المخابرات فى البر والبحر والجو ، فى الحرب والسلم .. وهو باختصار إطلالة متأنية على عالم مثير يحبس الأنفاس ، هو عالم الجواسيس والجاسوسية .

المؤلف